الفصل الخامس

رحلة ابن بطوطة

١

حياته وتجواله فى الآفاق

هو أبو عبدالله محمد بن محمد اللواتى الطَّنْجى، ويشتهر باسم ابن بَطُوطة، ولد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة عُنيت بالعلوم الشرعية، وعُرفت بالبَسْطة فى العيش والسعة. واهتم أبوه بتربيته، فدرس الفقه والأدب، وأصبح حريًّا بأن يكون قاضياً مثل كثير من أهله، ولكن داعىَ الحج إلى البيت الحرام دعاه، فلبّاه، وخرج من بلده وهو فى الثانية والعشرين من عمره سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م.

وأخذ طريقه إلى مصر مع قافلة من قوافل الحجاج، وعرفوا فيه علمه وفقهه، فجعلوه قاضياً عليهم. ولما وصل إلى الإسكندرية طاف بمشاهدها وزار علماءها وعُبّادها، ومن بينهم شيخ يسمى برهان الدين نزل عنده فى ضيافته ثلاث ليال، ولمح فيه رغبته فى التجول بالبلاد، فقال له: أراك تحبّ السياحة فى الآفاق، فأجابه: نعم، ولم يكن خَطَر بباله التوغل فى البلاد القاصية مثل الهند والصين، فقال له الشيخ: إنى أحمّلك السلام إلى إخوة لى فى الهند والسند والصين. فعجب من قوله. وبذلك ألقى الشيخ فى روعه التوجُّهَ إلى تلك البلاد.

ويرحل عن الإسكندرية إلى القاهرة، ولكنه لا يذهب إليها مباشرة،

بل يطوف ببعض البلاد فى الوجه البحرى ، ويزور زوايا الصالحين والزهاد ، وممن زارهم ببلدة «فوّة» بالقرب من «رشيد» شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وبات على سطح زاويته ، فرأى فى منامه أنه على جناح طائر عظيم يطير به فى سمت القبلة يتيامن ، ثم يشرق ، ثم يذهب فى ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق ، وينزل فى أرض مظلمة خضراء ، ويتركه بها . وقصّ رؤياه على الشيخ ، وسأله تأويلها . فقال له : سوف تحج وتزور النبى صلى الله عليه وسلم وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة .

وكان كل ذلك إرهاصا برحلاته الواسعة ، بحيث عُدّ أعظم رحّالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط ، ووصل إلى القاهرة والفسطاط وطاف بهما وبآثارهما ومشاهدهما ، ثم أخذ طريقه إلى الصعيد فعَيْذاب على البحر الأحمر ، ولكنه وجد الطريق فيها إلى جُدّة معطلا ، لخروج قبائل البجاة على سلطان مصر ، فعاد إلى الفسطاط ، وأخذ طريقه فى صحراء سيناء إلى الشام وطاف ببلدانها ، ثم تحول إلى الحجاز وأدى فريضة الحج ، حتى إذا انتهى منها سافر إلى العراق مع قوافل الحجاج ، ونزل واسطَ والبصرة ، وألمّ ببعض المدن فى غربى إيران ، ثم دخل الكوفة وبغداد وبعض مدن الموصل . وأدركه زمان الحج ، فأدى الفريضة مرة ثانية ، وأقام بمكة مدة . ثم ركب البحر إلى اليمن وطاف ببلدانها ، وتركها إلى إفريقية الشرقية . عابراً البحر إليها . ثم عاد إلى بلاد العرب مارًّا بشواطئها الجنوبية حتى الخليج الفارسى ، فزار ظفار وعمان والبحرين . ورجع إلى مكة فحج حجته الثالثة . وولّى وجهه نحو مصر ، ثم تركها إلى الشام وآسية الصغرى . وكان بها حينئذ السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأُوَل . وأبحر من هناك إلى شبه جزيرة القرم . وكانت تابعة لسلطان المغول محمد أوزبك ، وتنقل فى بلاده وفى القوقاز والبلغار ودخل القسطنطينية مع زوجة السلطان المذكور ، ويقول فى رحلته إنها بنت ملك الروم ، وقد ذهبت لزيارة أبيها ! .

ورحل بعد ذلك إلى خوارزم وبخارى . ثم تحول إلى بلاد أفغانستان ، ومنها دخل الهند سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ولقى حظوة عند سلطانها محمد شاه ، فولاه قضاء دهلى ، وأقام بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان مع وفد يحمل هدية إلى ملك الصين ، وركب البحر مع الوفد إلى قندهار ومنها إلى قاليقوط إحدى الثغور الهندية فى الغرب . ومحطة السفن الذاهبة إلى الصين . وبينما كان على شاطىء الثغر هبت عاصفة أغرقت المركب والهدية . فلم يرجع إلى السلطان ، بل تنقل فى جزائر ذيبة المهل (الملديف) وتولى القضاء فيها عاماً وبعض عام ، ثم تركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال وركب البحر مارا بشبه جزيرة الملايو . وتنقل فى الصين مطلعاً على أحوال المسلمين هناك ، ثم رحل عنها مارا بسومطرة ، ونزل فى ظفار ، واتجه إلى بلاد العجم ، ثم تركها إلى ما بين النهرين وبلاد الشام ونزل مصر ، ثم رحل إلى عيذاب ، وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

ثم رأى أن يعود إلى وطنه ، فمر بمصر ، ومنها أبحر إلى تونس ، فالجزائر ومراكش ، ووصل إلى فاس فى شعبان سنة ٧٥٠ هـ حيث حظى برعاية السلطان أبى عنان المرينى .

ورأى أن يزور الأندلس ، فرحل إليها رحلته الثانية ، ومرّ فى طريقه بمسقط رأسه : طنجة ، وطاف ببلدان الأندلس ، وزار غرناطة ، ثم عاد إلى فاس . ومنها قام برحلته الثالثة (٧٥٣ — ٧٥٤ هـ .) فزار بلاد السودان الغربى ، وتوغل فى مجاهل إفريقية المتوسطة ، ثم رجع إلى فاس حيث أمضى بقية حياته .

وأعجب السلطان أبو عنان بما يرويه من طرائف الأخبار وغرائب الأسفار ، فأمر كاتبه محمد بن جُزَىّ أن يروى عنه رحلته ، وعنى ابن جزى بذلك ، إذ كان أديباً بارعاً ، وأخرج الرحلة فى شكلها الذى نقرؤه الآن ، وسماها (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد

أضاف فيها إضافات لم ينقلها عن ابن بطوطة ، وإنما نقلها عن الراحلين قبله مثل ابن جبير . وأغلب الظن أن ما يتقدم وصف البلدان من بعض السجعات . إنما هو من عمل هذا الأديب . وما من شك فى أن مقدمة الرحلة المسجوعة من صنعه .

واهتم المستشرقون منذ أوائل القرن الماضى بهذه الرحلة ، فنشروا منها قطعاً وأجزاء ، ثم نشرت كاملة مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٥٩ م وطبعت بعد ذلك فى القاهرة طبعات مختلفة ، وترجمت إلى الألمانية سنة ١٩١٢ م . وكل هذه العناية لما تحوى من طرافة حقيقية فى الخبر وقَصَّه وفى الحكاية عن البلاد القريبة والبعيدة فى آسية وإفريقية .

ولم يترك ابن بَطُوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها ، وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التى نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وكانت فيه نزعة دينية قوية ، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام وزوايا المتصوفة . ولن نستطيع أن نعرض رحلته فى كل الأقطار ، فقد طالت ، حتى استوعبت مجلدين كبيرين . ومن ثمّ رأينا أن نتابعه فى الأقاليم التى لم يزرها ابن جبير ، حتى لا نقع فى تكرار ما شاهده سلفه ، وحتى نطرف القارئ بأخبار بلاد جديدة .

٢

من الأناضول إلى بلاد المغول

رأينا ابن بطوطة بعد حجته الثالثة يقصد إلى مصر ثم يتركها إلى الشام ويدخل الأناضول أو آسية الصغرى ، ويتجول فى بلدانها واصفاً آثارها ومساجدها

ومدارسها وحماماتها وأسوارها وسكانها ومتحدثاً عن سلاطينها، وكان لكل بلدة سلطان ينفرد بها من السلاجقة أو من العثمانيين الذين استطاعوا بعد رحلته أن يضموا هذه البلاد تحت لوائهم ، فكوّنوا دولتهم وفتحوا القسطنطينية ، وتوغلوا فى أوربة وأقاموا إمبراطوريتهم المعروفة .

وأول بلدة نزل بها «العلايا» ، وكانت ثغراً على بحر الروم بالقرب من الشام . وراعه فيها كما راعه فى غيرها من بلاد الأناضول نظامٌ لفتوّة تقوم على الكرم وإيواء الغريب ، وهم جماعة من الشباب فى كل بلدة يقيمون عليهم رئيساً لهم ، ويتخذون لأنفسهم مقرا ، يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وندعه يصف ذلك بلسانه ، يقول :

« ذكرُ الأُخيَّة الفتيان : واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظَّلَمة . . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجرّدين ويقدمونه على أنفسهم . وتلك هى الفتوة أيضاً . ويبنى زاوية ، ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يُحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن وردّ فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوّ ، وأتوا بعد العصر إلى مقدّمهم بما اجتمع لهم . ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخى . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (من بلاد إيران) إلا أن هؤلاء أحبّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراماً وشفقة

عليه . وفى الثانى من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق له) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خَلَقة ،وعلى رأسه قلنسوة لبد (صوف) فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول الرجل ؟ فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ، فعجبت منه ، وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لى : هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين (إسكاف) وفيه كرم نفس، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليتُ المغربَ عاد إلينا ذلك الرجل، وذهبنا معه إلى زاويته، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان،وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراق ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس وله أرجل ثلاث . . وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويُملأ من الشحم المذاب ،وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم ، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكّل بها ، ويسمى عندهم الجراغجى . وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف . وكل واحد منهم متحزّم ، على وسطه سكين فى طول ذراعين . وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض إصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه . وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانىّ (ضرب من الحرير) وسواه حسنةُ المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقربنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركناهم بزاويتهم » .

وكان ابن بطوطة كلما نزل ببلدة من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وكانوا أحياناً لا ينتظرونه حتى يسأل عنهم ، بل يتقدمون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . يقول فى بلدة « لاذق » بعد أن وصف غياضها وأهلها وما يصنعون من ثياب القطن المعلمة بالذهب :

« وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم ، وأخذوا بأعنّة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع ، حتى سلّ بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون ، فخفنا منهم وظننا أنهم الحَرَميان الذين يقطعون الطرق وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا ، ثم بعث الله لنا رجلا حاجّاً يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم منا ، فقال إنهم من الفتيان ، وإن الذين سبقوا إلينا أولّاً هم أصحاب الفتى (أخى) سنان والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان . وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم . فعجبنا من كرم نفوسهم ، ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا ، فوقعت قرعة أخى سنان . وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمّام ، ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى ، يخدم الثلاثة والأربعة الواحدَ منهم . ثم خرجنا من الحمام ، فأتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراءُ آيات من الكتاب العزيز . ثم أخذوا فى السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث فى طلبنا بالعشىّ ، فتوجهنا إليه . . ثم عدنا إلى الزاوية ، فألفينا (الأخى) طومان وأصحابه فى انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ، ففعلوا فى الطعام والحمّام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبّوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضاً من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ثم السماع والرقص

كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن ، وأقمنا عندهم بالزاوية أياماً » .

ويصف لنا سلطان كل بلدة ومَنْ حوله من الفقهاء والعلماء ، وما يمنحه من الهدايا والصلات ، ولا ينسى أن يقص علينا حكايات الصالحين وما يُؤْثَرُ عن بعض المتصوفة هناك . وندعه يتحدث عن مشهد جلال الدين الرومى أعظم شعراء الإسلام المتصوفين ، وقد ألم بقبره فى مدينة «قونية» وسمع عنه بعض حكاياته :

« بهذه المدينة تُرْبة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان . وعلى تربته زاوية عظيمة ، فيها الطعام للوارد والصادر . يُذْكَرُ أنه كان فى ابتداء أمره فقيهاً مدرساً ، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية ، فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهى مقطوعة قطعاً ، يبيع القطعة منها بفَلْس . فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : هات طبقك ، فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها للشيخ ، فأخذها الشيخ بيده وأكلها . فخرج الحلوانى ، ولم يطعم أحداً سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه ، وترك التدريس ، فأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا فى طلبه ، فلم يعرفوا له مستقرا . ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسى المتعلق (ذو القافية الواحدة فى الشطرين) الذى لا يفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ، ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتاباً سموه المثنوى (اسم هذا الضرب من الشعر الفارسى) . وأهل تلك البلاد يعظّمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ، ويعلمونه ، ويقرأونه بزواياهم فى ليالى الجمعات » .

وما زال ينتقل بين زوايا الأخيات فى الأناضول حتى انتهى إلى « صَنوب » على البحر الأسود ، وركب البحر منها إلى ثغر الكورش فى شبه جزيرة القرم ، وتحول عنها إلى مدينة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، وكانوا قد دخلوا فى الإسلام ، بعد غاراتهم المشهورة على العالم الإسلامى بقيادة هولاكو مخرب بغداد ، ولولا وقوف جيوش مصر بقيادة

الظاهر بيبرس فى وجوههم وهزيمتهم لهم لتعمّ طوفانهم العالم الإسلامى .

وأكرم حاكم القرم ابن بطوطة وصحبه ، ودعاهم إلى مرافقته لزيارة السلطان محمد أوزبك بحاضرته ، ولبى الدعوة ابن بطوطة ، واستخدم فى ذهابه إليه ضربا من العربات تجرها الجياد كانوا يستخدمونه فى أسفارهم ، ووصفها بقوله :

« هى عجلات ، تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجرّه فرسان ، ومنها ما يجرّه أكثر من ذلك ، وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربة فى ثقلها أو خفتها . والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرّها ، ويكون عليها سَرْج ، وفى يده سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوّبها به إذا عاجتْ عن القصد . ويُجْعَلُ على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتكسى باللبد (الصوف) أو بالملف (الجوخ) . ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب ، وهو فى حال سيره . والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قفل . وجهزتُ لما أردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد ، ومعى بها جارية لى ، وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التُّوزَرِىّ ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة » . ولم يكن السلطان فى حاضرته ، التى تسمى (السرا) شمالى بحر خوارزم ، وإنما كان معسكراً بالقرب منها فى موضع يقال له (بَنْش دَغ) أى الجبال الخمسة . ووصف جيشه بأنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله العربات ، حتى إذا نزلوا مكانا أنزلوا البيوت عن العربات وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت . ودخل على السلطان محمد أوزبك ، وأعجب بمجلسه الذى كان يتخذه فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، يقول :

« إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة، وقوائمه فضة خالصة، ورءوسها مرصعة بالجواهر ،ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه الخاتون (زوجته) طَيْطُغْلى،ويليها الخاتون كَبَك، وعلى يساره الخاتون بَيَلون ، وتليها الخاتون أَرْدُجى . ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك ، وعن الشمال ولده الثانى جان بك . وتجلس بين يديه ابنته إيت كُجُجُك . وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير . وأما طيطغلى وهى الملكة وأحظاهن عنده فإنه يستقبلها إلى باب القبة ، فيسلم عليها ، ويأخذ بيدها ، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان . وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب . ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء ، فتنصَب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه . ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه ، وإخوته وأقاربه . ويقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال . ثم يدخل الناس للسلام ، الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ، ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد . فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن » .

ويُفيض فى الحديث عن كل ملكة أو زوجة من زوجات السلطان وجواريها ومماليكها ، ويحدثنا عن عطفهن عليه ، ثم يذكر أنه رغب فى زيارة مدينة بلغار فى حوض نهر الڤولجا الأوسط ، وعرف السلطان رغبته فأرسل معه من هداه الطريق . وقد حاول أن يدخل فى إقليم ويسوا ويورا شمالى البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالى، ويسميه أرض الظُّلْمة ، ثم أضرب عن ذلك لعظم المئونة فيه، ومن طريف ما قاله عنه مما سمعه من الناس :

« السفر إلى هذه الأرض المظلمة لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة ، أو نحوها ، موقَرة (محملة) بطعامه وشرابه وحَطَبه ، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مَدَر (حصا) . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مراراً كثيرة . وتنتهى قيمته إلى ألف دينار ونحوها . وتربَط العربة إلى عنقه ، ويقرنُ معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدَّم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فإذا وقف وقفت . وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ، ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بنى آدم ، وإلا غضب الكلب وفرّ وترك صاحبه للتلف . فإذا كملتْ للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السَّمُّور والسِّنْجاب والقاقم (أنواع من الفراء) . فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه ، وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه ، وربما رفعوا متاعهم ، أعنى أهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الإنس ، ولا يرون أحداً . والقاقم هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار . . . وهى شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل . . . والسَّمُّور دون ذلك تساوى الفروة منه أربعمائة دينار » .

وربما كان فى خبره عن بيع أهل الظلمة وشرائهم ضرباً من المبالغة . وقد عاد من مدينة البلغار إلى حضرة السلطان ، فأرسله مع إحدى زوجاته لزيارة أبيها ملك القسطنطينية ، كما يقول . وزار هذه البلدة وطاف فى البلاد

الواقعة بشماليها ، ثم عاد إلى السلطان وكان فى حاضرته « السرا » ، وأشاد بهذه المدينة وبمبانيها واتساع رقعتها ، ونوه بشيخ فقيه فيها يسمى نعمان الدين الخوارزمى ، وقال إن السلطان يزوره فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه ، ويقعد السلطان بين يديه ، ويكلمه ألطف كلام ويتواضع إليه ، والشيخ يترفع عليه ، حتى إذا حضره الفقراء والمساكين تواضع لهم وكلمهم بألطف كلام ، وأكرمهم .

ويشدّ ابن بطوطة الرّحال من حضرة هذا السلطان ، وينزل بغيره من سلاطين المغول فى التركستان ، ثم يخترق بلاد خراسان وأفغانستان إلى الهند . ويصف لنا كل بلدة ألم بها ، ويطرفنا بالحكايات عن الصالحين ، وعما يصله من هدايا القضاة والعلماء والسلاطين . ومن طريف ما ذكره عن السلطان طَرْمشيرين سلطان المغول فيما وراء النهر (التركستان) أنه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر إلى المسجد قبل الأذان للصلاة ، كعادته ، وجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها أمام المحراب الذى يصلى فيه ، وقال للإمام وكان اسمه حسام الدين : إن السلطان يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ ، فقال الإمام : الصلاة لله أو لطرمشيرين؟ ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وجاء السلطان ، وقد صلى الإمام ركعتين من صلاة العصر ، فصلى الركعتين الأخريين حيث انتهى به القيام ، وذلك فى الموضع الذى تكون فيه نعال الناس عند باب المسجد . وقام إلى الإمام ليصافحه ، وهو يضحك .

٣

فى الهنـــد

وصل ابن بطوطة إلى الهند فى أول شهر المحرم سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ، وكان سلطانها حينئذ محمد شاه ، وأخذ يتنقل فى البلاد التابعة له بالإقليم

المعروف باسم السند، وفيها رأى حيوان الكَرْكدَن ووصفه بأنه أسود اللون عظيم الجرم ، ضخم الرأس ، ولذلك يضربون به المثل هناك ، فيقولون رأس بلا بدن ، وهو دون الفيل ، ولكن رأسه أكبر من رأس الفيل وأعظم ، وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر .

وعلى هذا النحو أخذت عين ابن بطوطة ترصد وتسجل كل ما بالهند من أنهار وأشجار وفواكه وحبوب ، كما أخذت ترصد وتسجل عادات البلاد والسكان وأمور ولاتهم وحكامهم . وعلى سُنّته كلما نزل ببلدة اتصل بمن يسوسون أهلها من قِبَل السلطان وروى لنا ضيافتهم وحسن رعايتهم له، وصور لنا مجالسهم ومواكبهم فى البر ونهر السند ، غير غافل عما هناك من مراسيم بين المسلمين . وراءه حرق الهندوس لموتاهم بالنار ، وتحريق النساء مع أزواجهن حين يموتون ، وتقربهم إلى إلههم بالغرق فى نهر الكنج المقدس ، وفى ذلك يقول :

« رأيت الناس يُهْرَعُون ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كافراً من الهنود مات وأجّجت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا جاء أصحابى وأخبروني أنها عانقت الميت ، حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهنود . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان (يريد السلطان محمد شاه) استأذنوا السلطان فى إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أنى كنت بمدينة ، أكثر سكانها الكفار ، تعرف بأبحرى ، وأميرها مسلم . . . وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعيته من المسلمين والكفار ، ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعيته الكفار سبعة نفر ، وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ،

فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تكرَه على إحراق نفسها . ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائى ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا . وأتى إليهن النساء من كل جهة . وفى صبيحة اليوم الرابع أتيتْ كل واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهى متزينة متعطرة ، وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفى يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفّون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار (جمع نفير) وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغى السلام إلى أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى ، وهى تقول : نعم ، وتضحك إليهم . وركبت مع أصحابى لأرى كيفية صنعهن فى الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، بين أشجاره أربع قباب ، فى كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس ، فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها . ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه ، وجرّدن ما عليهن من ثياب وحلىّ ، فتصدقن به ، وأتيتْ كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربُط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها ، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض ، وصُبّ عليها زيت الجلجلان ، فزاد فى اشتعالها . وهنالك نحو خمسة عشر رجلا ، بأيديهم حُزَم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشبات كبار ، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة ،

يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف ، وقالت لهم بالهندية وهى تضحك ما معناه : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشُبَ من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى لولا أصحابى تداركونى بالماء ، فغسلوا وجهى وانصرفت . وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً فى الغرق ، يُغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنج ، وهو الذى إليه يحجون ، وفيه يُرْمَى برماد هؤلاء المحرقين ، وهم يقولون إنه من الجنة . وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لا تظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا أو لقلة مال ، إنما قصدى التقرّب إلى كُسّاى ، وكساى اسم الله عز وجل بلسانهم ، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى النهر المذكور » .

ونمضى معه ، وهو يتنقل فى بلاد الهند حَفِيًّا به الأمراء والقضاة والفقهاء حتى نصل معه إلى دهلى (دهى) ، ويصفها لنا وصفاً دقيقاً ، ويقول إن سورها ليس له نظير ، فعرضُ حائطه إحدى عشرة ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها السُّمّار (الحرس) وحُفّاظ الأبواب ، وفيه مخازن للطعام ومخازن للعدّد ومخازن للمجانيق . وأسفل هذا السور مبنىٌّ بالحجارة وأعلاه بالآجرّ ، وأبراجه كثيرة متقاربة . وفيه ثمانية وعشرون باباً . وأشاد بجامع دهلى وقال إن فيه ثلاث عشرة قبة ، وله أربعة من الصحون ، وفى وسطه عمود هائل ، وفى صحنه الشمالى صومعة لا نظير لها فى بلاد الإسلام ، ورأسها من الرخام الخالص ، وتفاحاتها (رءوس أعمدتها) من الذهب الخالص ، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . ويقول إن هذا الجامع كان بُدْخانه أى بيت أصنام ، فلما فُتحت دهلى

سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩م حوّله الفاتحون إلى هذا المسجد العظيم .

ويعرض لنا ابن بطوطة بعض مزارات دهلى ويتحدث عن علمائها وعُبّادها ، ثم يخرج إلى حديث مفصل عن تاريخها منذ فتحها المسلمون ومن تملّكها من السلاطين حتى سلطانها الأخير محمد شاه . ويفرد فصولا طوالا للحديث عن هذا السلطان وقصره فى دهلى ومجلسه ومراسيمه فى هذا المجلس ، وقعوده للغرباء واهتمامه بهم وتوظيفه لهم فى الوظائف الكبرى بسلطنته ، ويفيض فى الحديث عما يسبغه عليهم من الإنعام وولاية الخطط الرفيعة ، ومما يقول فى وصفه إنه « أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يَغنَى أو حىّ يقتل ، وقد شُهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش » ويكثر ابن بطوطة من الحكايات فى الجانبين مصوراً غنى هذا السلطان وكثرة ما بخزائنه من الحلى والذهب . ونكتفى من ذلك بتصويره لاحتفاله بيوم العيد ، يقول :

« يُفرَشُ القصر يوم العيد ويزيَّن بأبدع الزينة ، وتُضرَبُ البادكة على المشور (المجلس) كله ، وهى شبه خيمة عظيمة على أعمدة ضخام كثيرة ، وتحفها القباب من كل ناحية ، ويُصنَعُ شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ، ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ، ويجعل بين كل شجرتين كرسىّ ذهب عليه مرتبة مغطاة ، وينصَبُ السرير الأعظم فى صدر المشور ، وهو من الذهب الخالص كله ، مرصع القوائم بالجوهر ، وطوله ثلاثة وعشرون شبراً ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل ، وتجمع قطعه ، فتتصل ، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب ، وتجعل فوقه المرتبة . ويُرفَعُ الشطر المرصّع بالجواهر على رأس السلطان . وعندما يصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله ، ثم يتقدم الناس للسلام ، فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان

وأقاربه وأصهاره ثم الأعزة (الغرباء) ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ المماليك ، ثم كبار الأجناد ، يسلم واحد إثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع . . . وإذا فرغ الناس من السلام وُضع لهم الطعام على حسب مراتبهم . وتنصَبُ فى ذلك اليوم المبخرة العظمى ، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفى داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخرون يوقدون العود . . . والعنبر الأشهب والجاوىّ حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدى فتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا . . . ويأتى أهل الطرب فيغنين ويرقصن . ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر . . . ويعطى الصدقات ويكثر منها » .

وما نزال مع ابن بطوطة فى عرضه لمكارم السلطان وكثرة من فتك بهم من الأعوان متحدثاً عن كثير من شئونه وشئون رعيته . وأخيراً يحدثنا عن حياته فى دهلى فيذكر لنا أنه حين قدم عليها كان السلطان غائباً ، فاستقبله هو وصحبه الوزير خواجه جهان ، واحتفل بمقدمهم احتفالا كبيراً . ويقدم السلطان ، فيلقاه ويخلع عليه الخِلَع السنية والعطايا الجزيلة ، وينعم عليه بولاية القضاء فى عاصمته ، وتبتسم له الدنيا نحو ثمانى سنوات فى ظل هذه الوظيفة ورعاية السلطان ، ثم تحدث بينهما جفوة ، ويهم السلطان بإنزال جام غضبه عليه ، فيعتزل عمله ، ويخرج عن جميع ما ملكه للفقراء ، ويلزم بعض الزهاد ، وينقلب متعبداً صائماً يلبس ثياب الفقراء . ويعلم السلطانُ بما صار إليه ، فيعطف عليه ، ويرسله على رأس وفد بهدية إلى ملك الصين . ويأخذ طريقه إلى « قاليقوط » فى غربى الهند ليركب البحر منها إلى ثغور الصين ، ويحدثنا عما مر به من بلاد إلى هذا الثغر ، ويطرفنا من حين إلى آخر على عادته ببعض الحكايات أو ببعض عادات الهنود ، فمن ذلك حكايته عن

الشيخ محمد العريان القاطن بمصر ، فقد ذكر تلميذٌ زاهد له هناك عنه وكان يتسمى باسمه أنه :

« كان قائماً على قدم التجرُّد . . . وكان إذا صلّى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بزاويته من طعام وإدام وماء وفرّق ذلك على المساكين ، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم . . . ومن حكاياته أنه لما وصل ملك التتر إلى الشام بعساكره ، وملك دمشق ما عدا قلعتها ، وخرج الملك الناصر (قلاوون) إلى مدافعته ، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق . . . وكان الشيخ العريان فى صحبته نزل وأخذ قيداً ، فقيّد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء . فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين . فثبت الملك الناصر ، وهزم التتر هزيمة شنعاء . »

ويحدثنا عن انتشار السحر فى الهند واعتقاد أهلها فى أن السحرة هناك ويسمون الجوكية يتصورون فى صور الحيوانات ، ولعل هذا الاعتقاد شعبة من شعب الإيمان بالتناسخ . ومن طريف ما يقصه عن هؤلاء الجوكية أو السحرة أن السلطان محمد شاه بعث إليه يوماً ، فدخل عليه فوجد عنده رجلين منهم وهما يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما ، وأمره السلطان بالجلوس فجلس ، فقال لهما : إن هذا الشخص من بلاد بعيدة . فأرياه من غريب صنعكما . وصدعا بأمره ، ولنترك ابن بطوطة يتم الحكاية بلسانه :

« فتربّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض ، حتى صار فى الهواء فوقنا متربّعاً ، فعجبت منه وأدركنى الخوف ، فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقتُ وقعدت ، وهو على حاله متربع . فأخذ صاحبه نَعْلاله من شكارة (جوالق صغير) كانت معه . فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدتْ إلى أن علتْ فوق عنق المتربع ، وجعلت تضرب فى عنقه ، وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا . فقال لى السلطان : إن المتربع هو تلميذ

صاحب النعل . ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت . فانصرفت عنه ، وأصابنى الخفقان ومرضتُ ، حتى أمر لى بشربة أذهبتْ ذلك عنى » .

ونظن أن المرض الذى أصاب ابن بطوطة ليس إلا ضرباً من التنويم ، حتى خيَّل إليه الساحر ما خيل ، وسنرى ساحراً آخر فى الصين ينوِّمه أو يمرضه كما يقول .

٤

من قَنْدَهار إلى الصين

ركب ابن بطوطة البحر مع وفد السلطان محمد شاه من ثغر قندهار ، وكانت وجهتهم قاليقوط أكبر الثغور الهندية فى الغرب . حيث تجتمع مراكب الصين واليمن وفارس ويلتقى تجار الآفاق . وإنما اتجهوا إليها . ليسافروا منها على بعض المراكب الصينية الكبيرة .

ولم يتجهوا إلى قاليقوط مباشرة ، بل ألموا بالثغور الهندية شماليها مثل هِنَوْر ، ووصف لنا شجرات الفلفل ، فقال إنها تشبه دوالى (عيدان) العنب ، وهم يغرسونها إزاء النارَجيل (جوز الهند) فتصعد عليها كصعود عيدان العنب على الأشجار ، وتثمر عناقيد صغيرة ، يقطفونها فى الخريف ، ويفرشونها على الحُصر فى الشمس ، كما يصنع بالعنب ، ولا يزالون يقلبونها حتى يستحكم يُبْسُها ، ثم يبيعونها للتجار . وانتهى إلى قاليقوط مع الوفد والهدية ، وأعِدّ لهم جُنْك صينى (سفينة كبيرة) ليحملهم فى البحر ، ونقلتْ إليه الهدية ، ونزل فيه صحبه ، وتخلف هو قليلا على الشاطئ : وتصادف

أن هبت ريح عاصفة أغرقت الجنك بمن فيه ، وارتاع ابن بطوطة ، وصمم أن لا يعود إلى السلطان ، ويمّم نحو جزائر ذيبة المهل (ملديف) فى جنوبى الهند إلى الغرب . ومما يقوله فى وصفها :

« هذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا . وهى نحو ألفى جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة . لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه . . . وهى من التقارب بحيث تظهر رءوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهى منقسمة أقاليم ، على كل إقليم وال . وأكل أهلها سمك يسمونه قُلْب الماس . ولحمه أحمر ولا ذَفَر له ، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام . . . ومعظم أشجار هذه الجزائر النارَجيل (جوز الهند) وهو من أقواتهم مع السمك . . . وتثمر النخلة منها اثنى عشر عِذْقاً (كباسة أو سباطة كالعنقود) فى السنة . يخرج فى كل شهر عِذْق ، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً ، وبعضها يابساً وبعضها أخضر ، هكذا أبداً . ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل . . . ويصنعون من عسله الحلواء ، فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . ومن أشجارها الأترجّ والليمون والقلقاس . وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة . . . وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم الخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفاً لشدة الحرّ بها وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية . . . ولباسهم فُوَط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوضَ السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياباً كالمحرمين ، وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيراً عوضاً عنها . . . ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطتْ له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجُعل عليها غرَفات من الوَدع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة

عند باب البيت تنتظره ، فإذا وصل إليها رمتْ على رجليه ثوباً يأخذه خدّمه . وإن كانت المرأة هى التى تأتى إلى منزل الرجل بُسطت (فرشت) داره وجُعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه . وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم ، لابد من الثوب يرْمى عند ذلك . . . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشى بها كأنه فى بستان . . . وصَرْفُ (نقد) أهل هذه الجزائر الودع . . . وهذا الودع أيضاً صرف السودان فى بلادهم . رأيته يباع بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبى . . . ونساؤها لا يغطين رءوسهن ، ويمشطن شعورهن ، ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تستر من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . . . وحليهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق . . . والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء ، وأكثر الناس لا يسمى صداقاً . . . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن . وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً ، ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن ، ولا تكلُ المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هى تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . »

وألقى ابن بطوطة عصا ترحاله فى هذه الجزر لمدة سنة ونصف ، حظى فيها برضا السلطانة إذ كانت تحكم أهلها امرأة عاقلة كما حظى برضا وزيرها ، ولم يلبث أن ولى القضاء فيها ، وتزوج بها . وعاودته رغبته فى التجوال والفرجة على بلاد الصين ، فركب البحر إلى جزيرة سيلان ، وفيها رآهم يستخرجون الياقوت من الأرض ، وقال إنهم يجدونه فى أحجار بيضاء مشعبة ، ويكون

فى أجوافها فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت ، وهى مختلفة الألوان ، فمنها الأحمر والأصفر والأزرق . ومما عجب منه فى هذه الجزيرة كثرة القرود ، وقال إنها سود الألوان ، ولها أذناب طوال ، ولذكورها لحىً كالآدميين . ويقص علينا أنه رأى فى هذه الجزيرة الصخرة التى وضع آدم قدمه عليها ، وهى خرافة . وقد أودع ابن بطوطة رحلته كثيراً من هذه الخرافات ، ومما لاشك فيه أنه يبالغ أحياناً ، حتى يصبح الواقع ضرباً من ضروب الخيال .

ورحل عن سيلان إلى بلاد بنغالة فى الشمال الغربى للهند ، والتقى بسلطانها وقصّ علينا بعض الكرامات لشيخ هناك ، ثم توجه إلى سومطرة أو بلاد الجاوة ، وقصّ علينا طائفة من أحوالها ، ووصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندى والقرنفل ، يقول :

« وشجرة اللُّبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك ، وأغصانها كأغصان الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق . . . واللبان صمغية تكون فى أغصانها . وأما شجر الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور فى داخل الأنابيب . . . وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط ، إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له . . . وأما أشجار القرنفل فهى ضخمة . . . والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان ، والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل هو الذى يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النارنج . وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب . رأيت ذلك كله وشاهدته . »

ويرحل ابن بطوطة عن سومطرة أو أرض الجاوة كما يسميها ، ويُبْحِرُ نحو الصين عن طريق البحر ، ويصل إلى ثغر الزيتون ويتنقل فى هذه البلاد التى طالما حلم بالفرجة عليها ، ومما يقول فيها :

« أهل الصين يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . ومالك

الصين تترىّ من ذرية تنكيزخان . وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة (حىّ) للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها ، وهم معظّمون محترمون . وأهل الصين (من غير المسلمين) يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى أسواقهم . وهم أهل رفاهية وسَعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . . ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى . والحرير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج إلى كثير مئونة ، ولذلك كثُر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً ، تكون القطعة منها قنطارا فما فوقه وما دونه . . . وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ضرب من الورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان . . . وجميع أهل الصين إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالمَغْفل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتى القيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه ، فيَقِد كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . . . ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار ، ويضيفون إليه حجارة سواه . وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها ، وذلك مشهور من حالهم . قد وصفه الناس فى تصانيفهم ، فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتداراً عظيما . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها ، إلا رأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد ، موضوعة فى الأسواق . . . وتنتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد وبُحِثَ عنه ، فحيثما وُجد شبه تلك الصورة أخذ » .

ووصف لنا ابن بطوطة نظامهم فى الجمارك وتفتيش السفن وأنهم يقيِّدون أسماء البحارة فى سفنهم ، حتى إذا عادت من رحلتها سألوا عن كل شخص انتظم فيها ، وإن لم يجدوا أحد الأشخاص طلبوا من رئيس المركب الدليل على أنه مات أو فرّ . ويقص علينا ابن بطوطة كثيراً من أحوال المسلمين فى البلاد الصينية المختلفة ، ويذكر أن فى كل بلد شيخاً للإسلام وقاضياً منهم يحكم بينهم ويبالغ فى الحفاوة التى كانوا يستقبلونه بها ، وقد أشاد بأسرة عثمان ابن عفان المصرى التى لقيها فى مدينة « خَنْسا » وهو تاجر مصرى استحسن هذه المدينة واستوطنها ، وأورث أبناءه فيها الجاه والحرمة . ومما أعجب به فى هذه البلاد بيوت يتخذونها لذوى العاهات ، وشاهد هناك ضروباً من السحر والشعوذة على نحو ما شاهد فى الهند بحضرة السلطان ، ومما يقصه من ذلك هذه الحكاية التى تشبه أن تكون خرافة :

« حضر أحد المُشَعْوِذة ، فأخذ كرة خشب لها ثقب ، فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء ، فارتفعت حتى غابتْ عن الأبصار ، ونحن فى وسط المشور (مجلس الأمير) أيام الحرّ الشديد . فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسيرٌ أمر متعلماً له ، فتعلق به وصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاثاً ، فلم يجبه ، فأخذ سكيناً فى يده كالمغتاظ ، وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً . ثم رمى بيد الصبى إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو ينفخ وثيابه مطلخة بالدم . فقبل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصبى ، وأمر له الأمير بشىء . ثم إنه أخذ أعضاء الصبى ، فألصق بعضها ببعض ، وركله برجله ، فقام سويا . فعجبت منه ، وأصابنى خفقان القلب ، كمثل ما أصابنى عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك ، فسقونى دواءً أذهب عنى ما وجدت . وكان القاضى فخر الدين إلى جانبى ، فقال لى : والله ما كان

من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وإنما ذلك شعوذة » . ولعله ضرب من التنويم جعل ابن بطوطة يظن ذلك حقيقة واقعة . وبينما كان يطوف بالبلاد جاءته دعوة من ملكها لزيارته ، فرحل إلى مدينته « خانبالق » ووصف قصر الملك وأبوابه وديوانه ، وتصادف أن كان الملك مشغولا ببعض الفتن والحروب فعاد أدراجه إلى ثغر الزيتون ، ووجد بها جنكاً لسلطان جاوة الملك الظاهر ، فركبه ، ونزل عنده وأكرمه ، ثم صمم على أن يعود إلى بلاده ، ولكنه حين وصل إلى مصر رأى أن يحج إلى بيت الله الحرام ، فسافر إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها إلى مكة . فأدى الفريضة ، وعاد منها إلى مصر ، ولم يلبث أن أبحر إلى تونس ، ووصل إلى فاس سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م وأطنب فى وصف سلطانها ومناقبه . ورحل رحلته الثانية إلى مسقط رأسه طنجة ، ودخل فى بلاد الأندلس ، ثم عاد إلى فاس وقد عزم على أن يقوم برحلة ثالثة فى السودان الغربى ، ليطلع على أحوال المسلمين هناك ويشاهد تلك البلاد .

٥

فى السودان الغربى

خرج ابن بطوطة من مدينة فاس قاصداً سجلماسة فى الجنوب ، وهناك اشترى الجمال وأعدها لهذه الرحلة الشاقة فى الصحراء الكبرى . وبدأ رحلته مع قافلة تقصد هذه الديار ، وكان ذلك فى غرة المحرم سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م وكان مقدم القافلة ورائدها أبا محمد يدكان المسوفى . ووصلوا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تغازا ، ولم يكد يصل إليها حتى عجب من بيوتها إذ رآها تتخذ من حجارة الملح ، ولم يكن يسكنها إلا عبيد مسوفة وهم يحفرون

على الملح فى الأرض ، فيجدون منه ألواحاً ضخاماً ، يبيعونها لأهل السودان ، ويقول ابن بطوطة إن للملح عند السودانيين شأناً كبيراً حتى إنهم يتبايعون به ، كما يتبايع غيرهم بالذهب والفضة . ووصلت القافلة إلى تاسَرْهلا ، ومن هناك بعثوا برائد من قبيلة المسوفة إلى « إيوالاتن » جرياً مع عادة القوافل ، إذ يكتب الناس مع هذا الرائد لأصحابهم بتلك البلدة حتى يَكْتَرُوا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم إيذاناً لهم بالدخول . ودخل « إيوالاتن » بعد مسير شهرين من سجلماسة ، وأكرمه قاضيها وعلماؤها ، ولاحظ أن الناس هناك يلبسون ثياباً من نسيج مصر ، وأن النساء جميلات فاتنات وأن الرجال لا يغارون عليهن وأن الرجل يرثه أبناء أخته دون بنيه ، ويقول « ومع ذلك فهم مسلمون يحافظون على الصلوات وتعلُّم الفقه وحِفْظ القرآن الكريم » .

وعَقَد العزم على الوصول إلى « مالى » جنوبى نهر النّيجر ، فاستأجر هو وثلاثة من أصحابه دليلا من قبيلة المسوفة ولم يكد يمضى فى الطريق حتى عجب من كثرة الأشجار وضخامتها ، حتى إن الواحدة منها تُظل القافلة ، ولاحظ أن فى بعضها فجوات كبيرة يُحْفَظُ فيها ماء المطر ، وكأنها آبار ، والناس يشربون منها الماء . وعلى طول الطريق يقول وأشجار فواكه ، يقول :

« والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً ، وإنما يحمل قطع الملح وحلىّ الزجاج وبعض السِّلَع العطرية . وأكثر ما يعجبهم منها القَرَنْفُل والمَصْطَكا ، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفولى ، وهو كحبّ الخردل يصنعُ منه العصيدة ، ودقيق اللوبياء ، فيشترى منهن ما أحبّ من ذلك » .

وما زال فى طريقه حتى وصل إلى « زاغة » وهى من البلاد التى دخلها الإسلام قديماً ، وأعجب بأهلها ، وانتهى إلى كارسخو على نهر النّيجر فظنه النيل ، وظل فى رحلته حتى وصل إلى مالى حاضرة ملك السودان الغربى ، وكان قد

كتب إلى بعض الجالية العربية بها ، ليأخذ له الإذن فى دخولها ، وليكترى له داراً ينزل بها ، والتقى فيها بتاجر مصرى يسمى شمس الدين بن النقويس ، وأكرمه قاضى مالى وفقهاؤها . أما ملكها أو سلطانها فقد وصفه بالبخل ، إذ لم يلق عنده من كرم الضيافة ما لقيه فى المشرق قاصيه ودانيه عند الملوك والسلاطين . ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عن هذا السلطان المسلم احتفاله بعيدى الفطر والأضحى ، وما يتخذ لذلك من مجلس كبير يتغنى فيه مغنيات حسان ويلعب فيه غلمان على رءوسهم الشواشى البيض ويتقلبون فى الهواء ويأتون بحركات خفيفة رشيقة . ثم يستقبل السلطان الشعراء . يقول ابن بطوطة :

« يجىء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه (طائر) الشَّقْشاق وجُعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان ، فينشدون أشعارهم . ثم يصعد كبير الشعراء على درَج البَنْبى (مجلس السلطان) فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهو يتكلم بلسانهم ، ثم ينزل » .

وأشاد ابن بطوطة بشمول العدل والأمن فى هذه الديار وأن المسافر فيها لا يخاف سارقاً ولا غاصباً ، وأن الناس هناك يواظبون على الصلاة ويعنون بأدائها فى الجماعات وأن من لا يبكّر إلى المسجد فى يوم الجمعة لا يجد أين يصلى لكثرة الزحام . وقال إنهم يعنون بحفظ القرآن الكريم عناية شديدة .

ومكث فى مالى نحو ثمانية أشهر ، وخرج منها فى المحرم سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ميمماً شطر « تنبكتو » ، ولم يكد يشرف على نهر النيجر حتى رأى ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ، فظنها فيلة ، ولكنه وجدها تدخل فى النهر ، فسأل عنها فعرف أنها أفراس البحر ، ووصفها بأنها « أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذناب ، ورءوسها كرءوس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . . . وهى تعوم فى الماء وترفع رأسها وتنفخ » . وذكر أن الناس هناك يصيدونها ويأكلون

لحمها . وهنا نراه يتحدث عن أكلة لحوم البشر ، ويقص حكايات تُرْوَى عنهم ويصل إلى تنبكتو ، ويحدثنا أنه رأى بها قَبْرَ سراج الدين بن الكُوَيك أحد كبار التجار من أهل الإسكندريه ، ويذكر فى سبب ذهابه إلى هناك أن حاكم هذه المدينة لما حج اقترض منه مالا ، فتوجه إليه ، ومعه ابنه ، فتصادف أن أدركه الموت هناك ، فدفن حيث مات ، وعاد ابنه بالمال .

ويولّى ابن بطوطة وجهه إلى الشرق ، فيركب النيجر فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، وينزل بالقرى فى كل ليلة ، فيشترى ما يحتاج إليه من الطعام بالملح والعطريات وحلىّ الزجاج ، ويصل إلى مدينة كَوْكَوْ ، ويقول إنها مدينة كبيرة على النيل (النيجر) من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها . وفيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها القَقّوص العنانى (ضرب من القثاء) الذى لا نظير له ، وتعاملُ أهلها فى البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل مالى .

ورحل عن كوكو إلى تَكَدَّ ، وقال إنها مبنية بالحجارة الحمر ، ولا زرع بها إلا يسير من القمح ، ولا شغل لأهلها غير التجارة يسافرون بها إلى مصر ، ويجلبون منها حسان الثياب وسواها .

ونَوَّهَ ابن بطوطة بسلطان هذه البلدة لإكرامه له وحفاوته به ، ويظهر أنه كان ينوى الإقامة عنده ثم يتجه شرقاً إلى السودان وحوض النيل ، ولكن جاءه رسول من قبل سلطان فاس يأمره بالعودة ، فصدع بالأمر وعاد إلى فاس ، فوصلها بعد ثلاثة أشهر . وبذلك انتهت رحلة ابن بطوطة ، أعظم رَحّالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط .